حكايات الشعوب

الطاووس الأبيض

وحكايات أخرى
من إسبانيا



عبد التواب يوسف

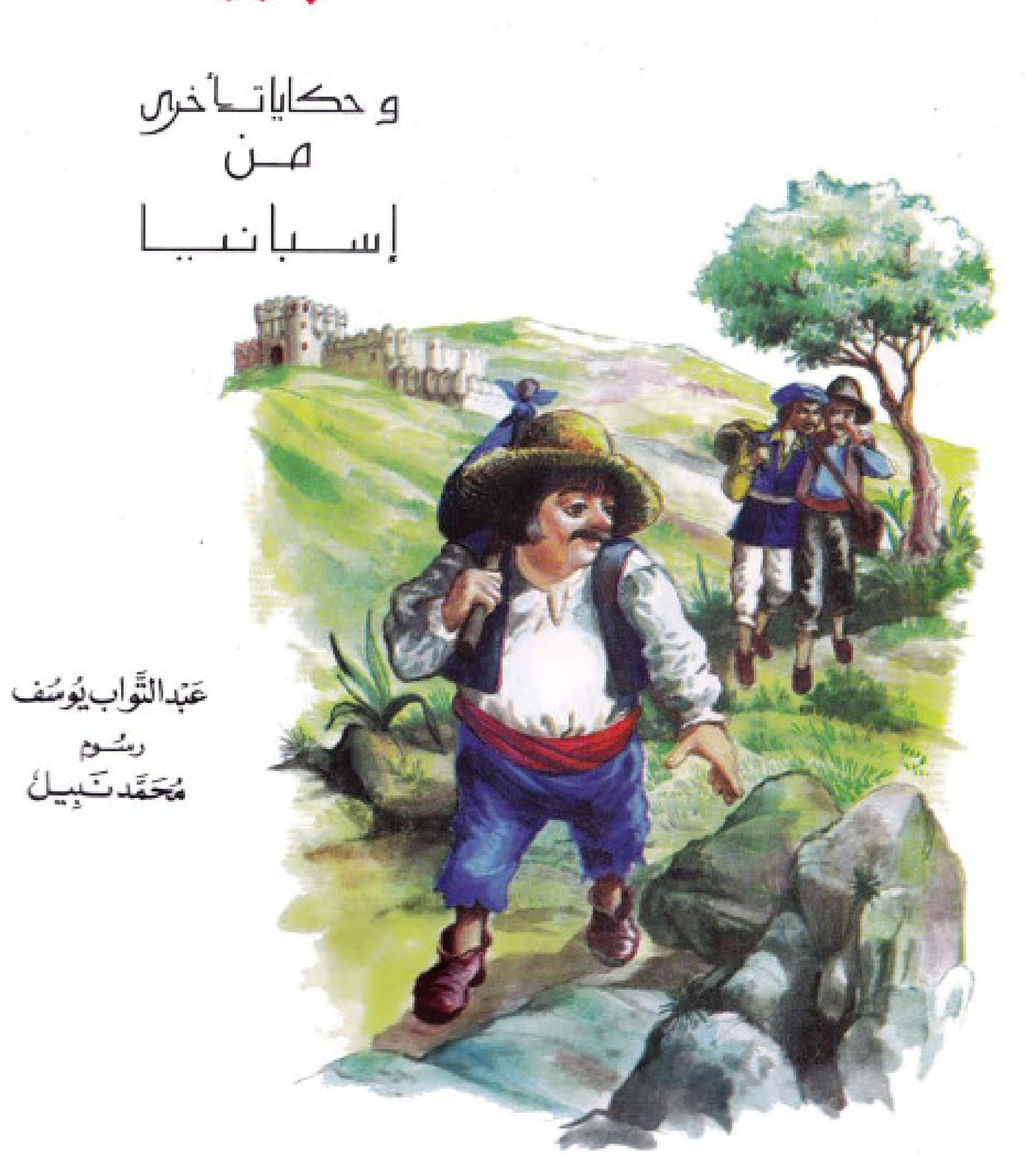
رسوم : محمد نبيل

سفير

حكايات الشعوب

الطاووس الأبيض

و حكايات أخرى
من
إسبانيا



عبد التواب يوسف
رسوم
محمد نبيل



مقدمة

إِسْبَانْيَا أَرْضُ الأَنْدَلُسِ العَرَبِيَّةُ العَـرِيقَةُ، التى استقرَّتْ فِيهَا العربيَّةُ علَى مدًى يَزِيدُ عَلَى سَبْـعِمائةٍ وَخَمسِينَ عَامًا، فَأَضَاءَتْ جنباتِهَا، فى الوَقْتِ الذِى كانَتْ فيهِ أوربا تَعِيشُ ظَلامَ العُصُورِ الوُسْطَى . .

وكَانَتِ الأَنْدَلُسُ رَافِدَ هَذهِ الحـضَارَةِ الزَّاهِرَةِ، وَفَاضَ خَيْرُهَا عَلَى كُلِّ البُلْدَانِ المجَاوِرَةِ المتَـخَلِّفَةِ فى كلِّ القَارَّةِ . . وَمِنْ هُنَا نَجِدُ أنَّ الحِكَايَـاتِ الشَّعْبِيَّـةَ الإِسْبَانِيَّـةَ الأَنْدُلُسِيَّةَ أَجْـملُ وَأَرْوَعُ مِنْ كُلِّ مَا يَرْوونَهُ فى أُورُبَّا، كَـما أنَّهـا أَقْربُ إِلينَا مِنْ كلِّ الحكاياتِ الأُورُبِـيةِ؛ لأنَّ فيهَا شَيْئًـا مِنَّا . . ونَحْنُ لَمْ نَتْرِكْ لهُم فَحسْبُ تلكَ الآثارَ البديعَةَ الـفَرِيدَةَ فى أَرْضِ الجنُوبِ، بَلْ إِنَّنا أَوْدَعْنَا عِندَهُمُ الحِكْمَةَ العَرَبِيَّةَ، والقِيمَةَ الإِسْلاميَّةَ، بكلِّ ما فِيهَا مِنْ رَوْعَةٍ وَإِبْهَـارٍ، فـانْسَـابَتْ فى تُرَاثِـهم وأَدَبِهم، وَظَهـرَتْ واضِـحـةً جَلِيَّـةً فِى تِلكَ الحـكاياتِ التِى تَوَارَثُوهَا . . وَنَحْنُ لمْ نَتَـعمَّدِ اخْـتِيَـارَ مَا نُقَدِّمُهُ هُنَا، بِحيـثُ يَكُونُ مُعَبِّرًا عَنْ هَذَا الذى نَقُـولُهُ، لكنَّـنَا نقَلْنَا أَشْـهـرَ مَـا لَدَيْهِم وَمَا يَعْتَزُّونَ بِهِ .



ونحنُ حِينَ نَقْـرأُ هَذهِ الأَعْـمَـالَ نَشْعرُ بِحَنِينٍ طَاغٍ إِلَى مَاضِينَا العَرِيقِ فى تِلكَ البـلادِ، وَنَتـذكَّـرُ مأْسَـاةَ سـقوطِهَـا، وَنُنَاضِلُ مِنْ أَجلِ أَلا يَـتكَـرَّرَ ذَلـكَ عَلَـى أىِّ أَرْضٍ عَربيَّةٍ أَوْ إِسْلاميَّةٍ .

المؤلف

أنَا أكلْتُ الرَّغِيفَ

كَانُوا ثَلاثَتُـهم فِى طَرِيقِهم إِلَى بِلادِ العَـرَبِ، هُمَا اثْنَانِ، وَثَالِثُـهمْ بَسِيطٌ سَـاذَجٌ طَيِّبٌ، وَقَدِ اتَّفَقُـوا فيمَا بَينَهمْ عَلَى أَنْ يَقْـتَسِموا كُلَّ شَىءٍ خِـلالَ رِحْلَتِهمُ الطَّوِيلَةِ الجمِـيلَةِ، وَتَعَاهَدُوا عَلَى المشَارَكَـةِ فِى المُؤُونَةِ، وَمَا مَعَـهم مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ بِالعَـدْلِ وَالقِسْطَاسِ. . غَيْـرَ أَنَّ مَا لَدَيْهم لَمْ يَكْفِهم، ولَمْ يَتبقَّ غَيرُ حَـفْنَةٍ مِنْ دَقيقٍ، تَكَادُ تَصْلُحُ لِصُنْعِ رَغِيفٍ مِنَ الخُبْزِ، لا أَكْثرَ. . وَتَهَامَسَ الاثْنَانِ فِـيمَا بَيْنَهُمَا فِى صَوْتٍ خَفِيضٍ :

- أَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّهُ مَا عَادَ لدَيْنَـا مَا يكْفِينَا مِنَ الخبْزِ. . وَزَمِيلُنَا هَذَا يَأْكُلُ كَـثِيرًا، وَيَسْتَأْثِرُ بأَكْبرِ كَـمِيَّةٍ مِنَ الطَّعَامِ؛ لِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ نُدبِّرَ أَمْرَنَا لِنَسْتَحوذَ عَلَى الرَّغِيفِ، أَوْ عَلَى أَغْلَبِهِ لِى ولَكَ.

وَافَقَ الشَّخْصُ الثَّانِى عَلَى فِكْرَةِ زَمِيلِهِ، وَعَلَى اقْتِرَاحِهِ، وَبَدَأَ فِى مُنَاقَشَـةِ الطَّـرِيقَةِ التِى يُنفِّذَانِها بِهَا، وَيُحقِّقَانِ غَرَضَهُما. . وَجَلَسَا إِلَى صَاحِبِهما السَّاذَجِ، وَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمَا:

- أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَتَبقَّ لَنَا غَيرُ رَغِيفٍ وَاحِدٍ.



- أَعْرِفُ هذَا.

- وَرَأَيْتُ أنا وَصَدِيقِى أَنْ نَضَعَهُ فِى الفُرْنِ، لِنَخْـبِزَهُ. . وَأَنْ نَنَامَ جَمِيـعًا إِلَى أَنْ يَتِمَّ خَبْزُهُ.

- لا مَانِعَ.

- وَعَلَيْنَا بَعْـدَ أَنْ نَسْـتَيـقِظَ أَنْ يحْكِيَ كلٌّ مِـنَّا عَـنِ الحُلْـمِ الذِى رَآهُ فـى أَثْنَـاءِ النَّومِ، وَصَـاحِبُ أَجْـمَلِ حُلْمٍ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ الرَّغِيفَ وَحْدَهُ.

- لَمْ أَفْهَمْ!!

أَعَـادَ الصَّاحِبُ عَلَى الـسَّاذَجِ اقْـتِرَاحَـهُ مَرَّتَينِ قَـبْلَ أَنْ تَبدُوَ عَلَيـهِ عَلامَـاتُ الفَهْمِ، وَكَانَ كُلٌّ مِنْهُما شَدِيدَ الثِّـقَةِ بِأَنَّ زَمِيلَهُما لَنْ

يَسْتَطِيعَ - لِسَذَاجَتِهِ - أَنْ يَبْتَكِرَ حُلْمًا جَمِيلا : وَبِذَلِكَ يَسْتَوْلِيَانِ مِنْهُ عَلَى الرَّغِيفِ . . وَقَدْ وَثِقَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِأَنَّ هَذِهِ الْخُطَّةَ سَتَنْجَحُ ، وَأَنَّ اللُّعْبَةَ سَوْفَ تَمرُّ عَلَيْهِ دُونَ اكتِشَافِهَا .

قَامَ الشُّرَكَاءُ الثَّلاثَةُ بِعَجْنِ الدَّقِيقِ ، وَإِعْدَادِهِ رَغِيفًا ، وَوَضَعُوهُ فِي الفُرْنِ ، ثُمَّ لَزِمَ كُلٌّ مِنْهُم فِرَاشَهُ لِكَي يَنَامَ ، وَلِكَي يَحْلُمَ حُلْمًا أَجْمَلَ مِنْ حُلْمِ الاثْنَيْنِ الآخَرَيْنِ ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَسْتَأْثِرَ وَحْدَهُ بِالرَّغِيفِ .

تَقَلَّبَ السَّاذَجُ فِي فِرَاشِهِ بَعْضَ الوَقْتِ ، بَيْنَمَا رَاحَ زَمِيلاهُ فِي نَومٍ عَمِيقٍ ، وارتَفَعَ شَخِيرُهُمَا ، بَينَمَا كَانَ هُوَ لا يَزَالُ يُحَاوِلُ النَّومَ ، الذِي لَمْ يُوَاتِهِ ، وَلَمْ يَغمُضْ لَهُ جَفْنٌ : هَلْ كَانَ ذَلِكَ لأَنَّهُ قَلِقٌ ، وَيَخْشَى أَلا يَرَى فِي أَثْنَاءِ نَومِهِ حُلْمًا ؟!

كَانَ السَّاذَجُ أَذْكَى كَثِيرًا مِمَّا يَظُنُّ زَمِيلاهُ . . هُوَ يَبْدُو كَذَلِكَ ، لَكِنَّهُ فِي حَقِيقَتِهِ قَادِرٌ عَلَى كَشْفِ أَلاعِيبِ الذِينَ يُرِيدُونَ اسْتِغْلالَهُ ، وَالإِيقَاعَ بِهِ . . إِنَّهُ لَمْ يَنَمْ لِسَبَبٍ آخَرَ ، غَايَةٍ فِي البَسَاطَةِ . . لَقَدْ قَرَّرَ أَنْ يُفَوِّتَ عَلَيهِمَا فُرْصَةَ انْتِزَاعِ الرَّغِيفِ مِنْهُ ، وَمَا إِنِ اطْمَأَنَّ إِلَى أَنَّهُمَا قَدِ اسْتَغْرَقَا فِي النَّومِ حَتَّى قَامَ إِلَى الفُرْنِ ، وَأَخْرَجَ مِنْهُ الرَّغِيفَ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ نَضِجَ تَمَامًا ، إِلا أَنَّهُ قَدْ أَصْبَحَ صَالِحًا لأَنْ يُؤْكَلَ . . وَقَطَعَ الرَّجُلُ ثُلُثَهُ ، وَأَعَادَ البَاقِي إِلَى الفُرْنِ ، ثُمَّ جَلَسَ وَأَكَلَ مَا قَطَعَهُ . . إِنَّهُ حَقُّهُ ، وَقَدِ اسْتَمتَعَ كَثِيرًا بِالْتِهَامِهِ . . وَبَعْدَ ذَلِكَ دَخَلَ إِلَى فِرَاشِهِ ، يُرِيدُ أَنْ يَسْتَمتِعَ كَذَلِكَ بِنَومٍ هَادِئٍ عَمِيقٍ ، لَعَلَّ حُلْمًا جَمِيلا يَأْتِيهِ ، وَبِذَلِكَ يَحْصُلُ عَلَى بَقِيَّةِ الرَّغِيفِ .

وَفَجأَةً ، اسْتَيقَظَ وَاحِدٌ مِنَ الرَّفِيقَيْنِ ، كَأَنَّمَا حَدَثَ شَيءٌ خَطِيرٌ أَطَارَ النَّومَ مِنْ عَيْنَيهِ ، وَصَاحَ يُوقِظُ الآخَرَيْنِ :



- انْهَضَا . . انْهَضَا . . لَقَدْ رَأَيتُ حُلْمًا لا يُصَدَّقُ .

فَتَحَ السَّاذَجُ عَيْنَيهِ فِي بُطْءٍ وَتَثَاقُلٍ ، وَسَأَلَهُ :

- مَاذَا هُنَالِكَ ؟!

- سَأَحْكِي لَكُمَا الحُلْمَ الذِي رَأَيْتُهُ .

- تَفَضَّلْ.

- لَقَدْ رَأَيْتُ نَفْسِى وَاقِفًا أَمَامَ أَبْوابِ الجَنَّةِ.

هَتَفَ السَّاذَجُ :

- الجَنَّة ؟!

- نَعَمْ الجَنَّةِ.. وكَانَ هُنَاكَ اثْنَانِ يَقِـفَانِ عِنْدَهَا، ومَا إِنْ لَمحانِى حَـتَّى سَارَعَا يَفْتَحـانِ لِىَ الأَبْوَابَ، ويُرَحِّبَانِ بِى أَجْمَلَ تَرْحِيبٍ.. هَلْ يُمكِنُ لأَحَدٍ أَنْ يَحْلُمَ مِثْلَ هَذَا الحُلْمِ الرّائِعِ؟ أَظُنُّ أَنَّ الرَّغِيفَ قَدْ أَصْبَحَ لِى وَحْدِى!

قَالَ السَّاذَجُ : بَلْ يَجِبُ أَنْ تَسْتَمِعَ إِلَى حُلْمِ زَمِيلِنَا وَحُلْمِى .

- طَبْعًا طَبْعًا.

بَدَأَ الزَّمِيلُ الثَّانِى يَرْوِى الحُلْمَ الذِى رَآهُ :

- أَمَّا أَنَا، فَقَدْ جَاءَنِى أَيْضًا اثْنَانِ مِنَ المَلائِكَةِ وَحَفَرَا فِى الأَرْضِ إِلَى أَنْ وَصَلا بِى إِلَى أَعْمَقِ أَعْمَاقِهَا..

سَمِعَ السَّاذَجُ هَذَا كُلَّهُ، وَهُوَ يَتَظَاهَرُ بِأَنَّهُ نَائِمٌ، ثُمَّ اسْتَيقَظَ فَجأَةً، مَفْزُوعًا مُرَوَّعًا، وَهُوَ يَقُولُ :



- مَنْ هَذَا الذِى يُنَادِينِى ؟

- نَحْنُ زَمِيلاكَ .

- هَلْ عُدْتُمَا ؟

- إِلَى أَيْنَ ذَهَبْنَا حَتَّى نَعُودَ ؟

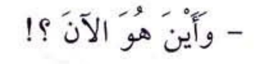
- سَأَحْكِى لَكُمَا مَا حَدَثَ.

- هيَّا.. وبِسُرْعَةٍ.

قَالَ السَّاذَجُ - وَمَا هُوَ بِسَاذَجٍ - :

- لَقَدْ صَحَـوْتُ قَبْلَكُمَا بِقَلِيلٍ، وَخَشِـيتُ أَنْ يَحْتَـرِقَ الرَّغِيفُ فِى الفُرْنِ، فَأَخْـرَجْتُهُ، وَتَركْتُـهُ يَبْرُدُ فِى مَكَانٍ أَمِينٍ مِنْ أَجْلِ صَاحِبِهِ الذِى سَيَفُوزُ بِهِ، وَهُوَ الذِى رَأَى أَجْمَلَ حُلْمٍ.

صَاحَ أَحَدُ الزَّمِيلَيْنِ :



- وأَيْنَ هُوَ الآنَ ؟!

- سَوْفَ تَعْرِفُ، وكُنْ حَلِيمًا مَعِى.

صَرَخَ الثَّانِى :

- تكَلَّمْ . . أكْمِلْ.

- هَلْ رأَيْتَ حُلْمًا فى أثْناءِ نَوْمِكَ ؟

قَالَ السَّاذَجُ فِى هُدُوءٍ :

- نَعَـمْ . . رأَيْتُ حُلْمـينِ، فِى الأَوَّلِ جاءَ مَلَكَـانِ وأَخَـذَا أَحَدَكُـمَا، ومَـضَيَـا بِهِ إِلَى الجَنَّةِ.

- هَذَا هُوَ أَنَا . . وَذَلِكَ هُوَ مَا حَلَمْتُ بِهِ.

صَاحَ الآخَرُ :

- وَاصِلْ حَدِيثَكَ.

- فِى الحُلْـمِ الثَّــانِـى جَــاءَ مَلَـكَانِ آخَـرانِ، وأَخَـذَا زَمِـيلَنَا إِلَى جَـهَـنَّمَ فِى بَاطِنِ الأَرْضِ، إِذْ إِنَّ هُنَاكَ نَاراً رَهِيبَةً.

- هَلْ هَذَا وَذَاكَ مَا رأَيْتَ فى أَثْنَاءِ نَوْمِكَ ؟

قَالَ السَّاذَجُ :

- نَعَمْ . . وقَدْ رأَيْتُمَا أَنْتُمَا الحُلْمَينِ تأْكِيداً وَإِثْبَاتًا لِصِدْقِ قَوْلِى.

- لَكِنْ مَا الذِى حَدَثَ لِلرَّغِيفِ ؟

- أَيْنَ هُوَ ؟

قَالَ مَنْ ظَنُّوهُ سَاذَجًا :

- لَقَدْ صَحَـوْتُ قَبْلَكُمَا، لَكِنَّنِى لَمْ أَعثُـرْ فِى الفُرْنِ إِلا عَلَى ثُلُثَى رَغِيفٍ . . ولَمَّـا كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّكُمَا لَنْ تَعُـودَا؛ إِذْ إِنَّ وَاحِداً مِنْكُمَا قَدْ مَضَى إِلَى الجَنَّةِ، وَالثَّـانِى قَدْ أُلْقِىَ بِهِ فِى النَّارِ؛ لِذَلِكَ فَقَدْ أَكَلْتُ الرَّغِيفَ . . نَعَمْ، أَنَا أَكَلْتُ الرَّغِيفَ.

الطاووس الأبيض

كَانَ هُنَاكَ طَاووسٌ أَبْيَضُ.. وَهُوَ لمْ يكُنِ الطَّاووسَ الأَبْيَضَ الوَحِيدَ فِى لَشْبُونةَ وَحْدَهَا، أَوْ فِى إِسْبَانيَا فَقَطْ، لكِنَّهُ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ لا يُوجدُ غَيرُهُ فِى كُلِّ الدُّنْيَا.. وكَانَ جَمِيلا.. جَمِيلا.. جَمِيلا.. إِلَى حَدِّ أَنَّنَا لا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَصِفَ بَهَاءَهُ.. مَا يَكَادُ يَسِيرُ فِى أَرْجَاءِ حَدِيقَةِ القَصْرِ حَتَّى يَسْتَرْعِىَ الأَنْظَارَ وَيَشُدَّ الانْتِبَاهَ، ومَا يُمْكِنُ لأَحَدٍ أَنْ يرْفَعَ بصرَهُ عَنْهُ، وَلابُدَّ لِكُلِّ مَنْ يراهُ أَنْ يَهْتِفَ بِكَلِماتِ الإِعْجَابِ الشَّدِيدِ، فَاتِحًا عَيْنَيْهِ وَفَمَهُ فِى انْبِهَارٍ :

- يَا أَللَّهُ عَلَى جَمَالِه.

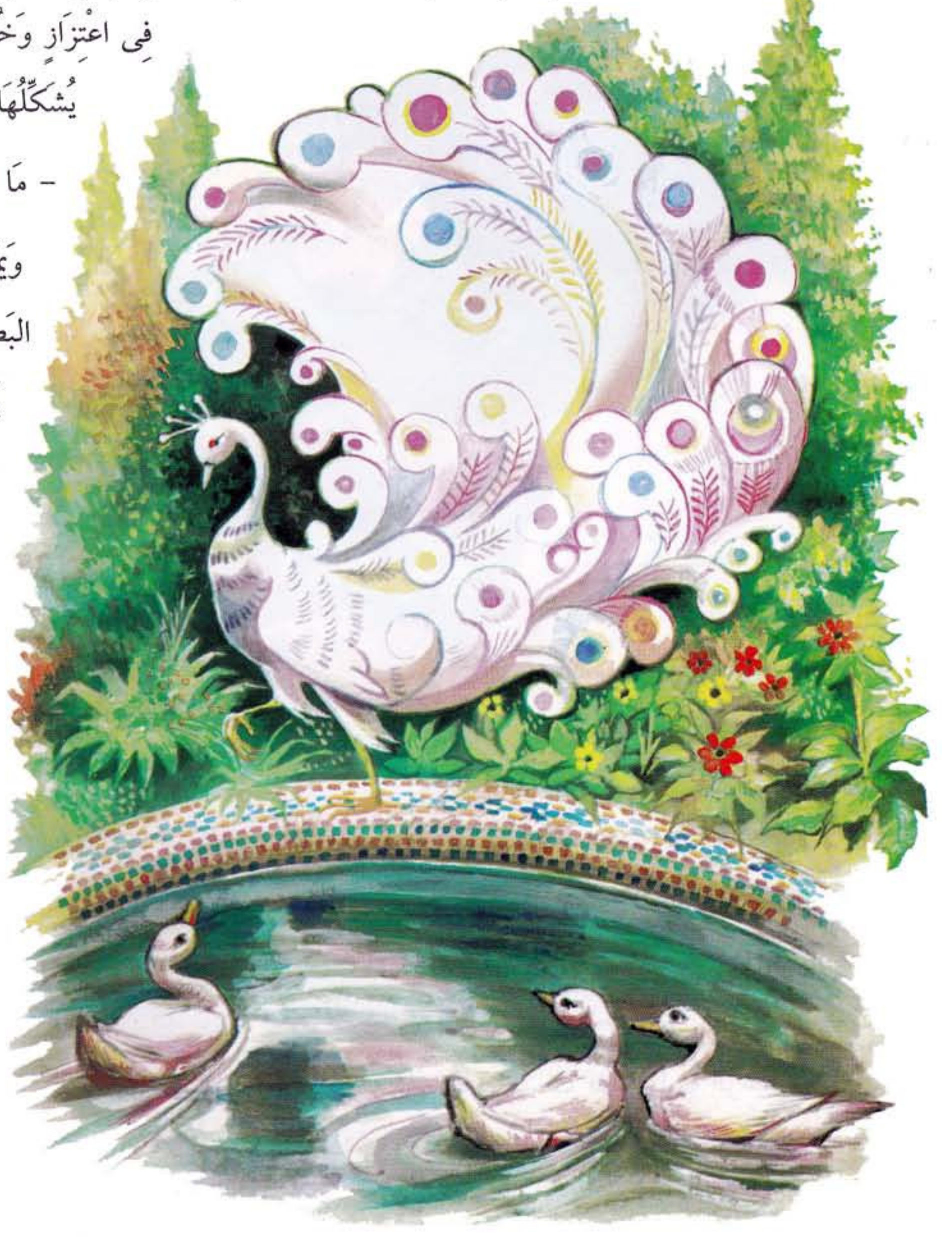
وكَانَ الطَّاووسُ الأَبْيَضُ يُدْرِكُ ذَلِكَ؛ لِهَذَا كَانَ يَتَمَشَّى بِخُطُوَاتٍ وَئِيدَةٍ، قَصِيرَةٍ، رَافِعًا رَأْسَهُ للسَّمَاءِ، مَادا رَقَبَتَهُ فِى اعْتِزَازٍ وَخُيَلاءَ، بَاسِطًا ذَيْلَهُ فِى نِصْفِ دَائِرَةٍ، يُشَكِّلُهَا رِيشُهُ فِى نَسَقٍ بَدِيعٍ...

- مَا أَرْوَعَ صَنِيعَكَ يَا أَللَّهُ.

وَيَمْضِى الطَّاووسُ الأَبْيضُ تُجَاهَ بُحَيْرَةِ البَطِّ، يَتَهَادَى فِى صَمْتٍ وَوَقَارٍ، كَأَنَّمَا يَقُولُ لِلْجَمِيعِ :

- انْظُرُوا.. واسْتَمْتِعُوا.. هَلْ رَأَيْتُمْ لِى مَثِيلا ؟

وَهُوَ يَتَطَلَّعُ هُنَا وَهُنَاكَ، وَيُلْقِى بِنَظْرَةٍ إِلَى هَذَا أَوْ ذَاكَ، وَسُرْعَانَ مَا يَسْتَرِدُّهَا، هُوَ وَحْدَهُ الجَدِيرُ بِأَنْ يَتَطَلَّعَ إِلَيْهِ الجَمِيعُ، وَيُرَكِّزَ الكُلُّ بَصَرَهُ عَلَيْهِ.. وَعِنْدَمَا يَصِلُ إِلَى البُحَيْرَةِ يَنْظُرُ إِلَى صُورَتِهِ عَلَى سَطْحِ مَائِهَا الصَّافِى وَيَتَمَلَّى فِيهَا، وَيَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهُ لا يُغَادِرُهَا أَبَدًا، وَيَرْجُو لَوْ أَنَّهُ بَقِىَ طَوَالَ يَوْمِهِ



يتمتَّعُ بِهَا. . وَمَا أَجْدَرَهَا بِذَلِكَ، وَهِىَ تَسْتَحِقُّهُ بِدُونِ شَكٍّ.

مَا مِن أَحَدٍ فِى لَشْبُونَةَ، أَوْ فِى إِسْبَانيَا، أَوْ فِى العَالَمِ كُلِّهِ إلا شَعَرَ بِالغَيْرَةِ مِنْ هَذَا الطَّاووسِ الأَبْيضِ. . وخَاصَّةً جَلالَةَ المَلِكَةِ، صَاحِبَةِ القَصْرِ، التِى اقْتَنت الطَّاووسَ ثُمَّ أَحسَّتْ أَنَّهُ يَجْذِبُ إِلَيْهِ الأَنْظَارَ، فَلا تَتَّجِهُ إِلَيْهَا.

- كَيفَ يَهتَمُّ النَّاسُ بِهذَا الطَّاووسِ أَكْثَرَ مِنَ اهْتِمَامِهِم بِى، أَنَا «المَلِكَة» ؟!

كَانَتْ جَلالَتُهَا سَمِينَةً بَدِينَةً، وَإِذَا مَا سَارَتْ فِى أَبْهَاءِ القَصْرِ أَوِ الحَدِيقَةِ تَرَجْرَجَ لَحْمُهَا، وَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا النَّاسُ بِجَانِبِ عُيُونِهِم حَاوَلُوا أَنْ يَكْتُمُوا ضَحِكَاتِهِم وَأَنْ يُخْفُوا ابْتِسَامَتَهِم؛ الأَمْرُ الذى كَانَتْ تَعْرِفُه تَمَامَ المعْرِفَةِ، وتَضِيقُ بِه كُلَّ الضِّيقِ؛ لِذَلِكَ نَشِبَتْ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الطَّاووسِ الأَبْيَضِ مَعْرَكَةٌ. . كَانَتْ فِى البِدَايَةِ صَامِتَةً. . هُوَ يَتعَالَى عَلَيهَا، وَهِىَ قَرَّرَت أَنْ تَقْضِىَ عَلَى صَلَفِهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَغُرُورِهِ، بِشَكْلٍ أَوْ بِآخَرَ؛ لِتَكُونَ وَحْدَهَا مَحَطَّ الأَنْظَارِ.

أَقْبَلَ الصَّيْفُ. .

وَهُوَ فِى لَشْبُونةَ فِى جَنُوبِ إِسْبَانيا شَدِيدُ الحَرَارَةِ، ولَكِنَّ غَضَبَ جَلالَةِ المَلِكَةِ البَدِينَةِ عَلَى طَاوُوسِهَا الأَبْيضِ كَانَ أَشَدَّ حَرَارَةً، لِذَلِكَ اسْتَدْعَتْ إِلَيهَا رَئِيسَ الخَدَمِ، وَقَالتْ لَهُ :

- هَذَا الطَّاووسُ الأَبْيَضُ يَحْتَاجُ مِنَّا أَنْ نُلَقِّنَهُ دَرْسًا فِى التَّوَاضُعِ لا يَنْسَاهُ أَبَدًا. . سَوفَ أُقِيمُ حَفْلا فَاخِرًا فِى القَصْرِ أَدْعُو إِلَيهِ أَصْحَابَ الفَخَامَةِ والسُّمُوِّ والرِّفْعَةِ فِى البِلادِ، وَلا أُرِيدُ لِهذَا الطَّاووسِ الأَبْيَضِ أَنْ يَخْطِفَ مِنِّى الأَضْوَاءَ، لِذَلِكَ اذْهَبُوا وَقُصُّوا لِى ذَيْلَهُ، وانْتَزِعُوهُ، مِنْ أَجْلِ أَنْ أَسْتَخْدِمَهُ مِروَحَةً، تُخَفِّفُ عَنِّى حَرَارَةَ الجَوِّ !

فَزِعَ كَبِيرُ الخَدَمِ لِذَلِكَ، وَعِنْدَمَا نَقَلَ أَوَامِرَ جَلالَةِ المَلِكَةِ إِلَى مُعَاوِنِيه أَبْدَوا دَهْشَةً

شَديدَةً، لَكنَّ ذَلكَ لَمْ يَمْنَعْ بَعْضَهُمْ مِنْ أَنْ يَهْتِفَ :

- إِنَّهُ يَسْتَحِقُّ هَذَا !

وَعِنْدَمَا عَلِمَ الطَّاوُوسُ الأَبْيَضُ بِالأَمْرِ نَزَلَ عَلَيهِ كَالصَّاعِقَةِ، وَاشْتَدَّ بِهِ الذُّعْرُ، وَخَافَ مِنْ أَنْ يَفْقِدَ ذَيْلَهُ الجَميلَ، الذى يَعْتَزُّ بِهِ كُلَّ الاعْتِزَازِ، وَاضْطَرَبَ، ولَمْ يَعُدْ يَبْسُطُهُ عَلَى الإِطْلاقِ، بَلْ جَمَعَ رِيشَهُ، وَحَاوَلَ أَنْ يُخْفِيَهُ، وَمَشَى بَائِسًا، مُنَكَّسَ الرَّأْسِ، دَامِعَ العَيْنَيْنِ، كَأَنَّهُ دَجَاجَةٌ ذَليلَةٌ أَهْمَلَهَا الدِّيكُ.



هَمَسَ الطَّاوُوسُ الأَبْيَضُ لِنَفْسِهِ :

- يَجِبُ أَلا أَرْضَخَ لِهَذَا الأَمْرِ الجَائِرِ والقَرَارِ الظَّالِمِ.. لابُدَّ لِى مِنْ أَنْ أَجِدَ حَلا.. مَاذَنْبِى وَقَدْ خَلَقَنِى اللَّهُ جَميلا ؟!.. وَجَاءَهُ الرَّدُّ مِنْ دَاخِلِهِ :

- لَكَ أَنْ تَعْتَزَّ بِجَمَالِكَ، لا أَنْ تَغْتَرَّ بِهِ، وَتَتِيهَ عَلَى كُلِّ المخلُوقَاتِ وَخَاصَّةً هَذِهِ التى تَرْعَاكَ!.. وَمِنْ جَديدٍ، قَالَ :

- لَكِنَّنِى يَجِبُ أَنْ أُحَافِظَ عَلَى هَذَا

الجَمَال، وأَنْ أُقَاتِلَ مِنْ أَجْلِهِ، ولَوْ ضِدَّ الملِكَةِ !

وَخَطَرَتْ عَلَى بَالِه فِكْرَةٌ، سُرْعَـانَ مَا عَمِلَ عَلَى تَنْفِـيذِهَا . . اتَّجَهَ نَحْوَ الـقَصْرِ هَادِئًا وَدِيعًا، يَسِـيرُ فِى ضَـعْفٍ وَهوَانٍ، وَصعِدَ السُّلَّمَ، وَقَد انْكَمَشَ عَلَى نَفْسِه، وَطَوَى رِيشَهُ، وَمَضَى إلَى غُرْفَةِ الملِكَةِ مُبَاشَرَةً، وَلَمْ يَعْتَرِضْ طَرِيقَهُ أَحَدٌ؛ إذْ إنَّهُمْ أَشْفَقُوا عَلَيهِ إزَاءَ مِحْنَتِهِ بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ التَّفْكِيرِ . . وطَرَقَ بَابَ جَلالَتِهَا، وَدَخَلَ إلَيْهَا لِيَنْحَنِى وَيَقُولَ :

- مَولاتِى، مَا السَّبِيلُ لِكَى أُنْقِذَ ذَيلِى وأَحْتَفِظَ بِهِ ؟

- لَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّهُ مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ تَتَخلَّصَ مِنْهُ وَتَتَخَلَّى عَنْهُ.

قَالَ الطَّاوُوسُ الأَبْيَضُ فِى صَوْتٍ تُبَطِّنُهُ الدُّمُوعُ :

- إنَّهُ كُلُّ مَا أَمْلِكُ . . وَمَا مِنْ شَىءٍ لِى سِوَاهُ !

- هَذِه هِىَ الوَسِيلَةُ لِكَى نُنْهِىَ غُرُورَكَ وَصَلَفَكَ.

- مَا حَدَثَ أَعَادَنِى إلَى صَوَابِى.

- عَلَيْـكَ أَنْ تُبَرْهِنَ عَـلَى ذَلِـكَ، وَتُثْـبِتَـهُ، وَتُقَدِّمَ الدَّلِيلَ عَلَيْهِ.

سَـادَتْ لَحْـظَةُ صَـمْتٍ، كَـانَ مِنَ الـوَاضِحِ أَنَّ الطَّاوُوسَ الأَبْيَضَ يُمْعِنُ خِلالَهَا فِى التَّـفْكِيرِ فِى شَىءٍ مَا يُرْضِى بِهِ جَلالَةَ الملِكَةِ . . وبَعْدَ حِينٍ رَفَعَ رَأْسَـهُ، وَقَالَ فِى صَوْتٍ هَادِئٍ يَسْتَعْطِفُهَا :





- غَدًا يُقَامُ الحَفْلُ الكَبِيرُ. وَسَوْفَ أَذْهَبُ لِكَى آخُذَ حَمَّامًا دَافِئًا، وَأَغْتَسِلَ، لِكَى أَبْدُو نَظِيفًا، وَ«أَكْثَرَ بَيَاضًا»، وَعِنْدَمَا تَجْلِسِينَ جَلالَتُكِ عَلَى العَرْشِ سَوْفَ أَتَسَلَّلُ مِنْ وَرَائِكِ، دُونَ أَنْ أَلْفِتَ الأَنْظَارَ، وَأَقِفُ مِنْ خَلْفِ العَرْشِ، وَأَهُزُّ ذَيْلِى كَأَنَّهُ مِرْوَحَةٌ.. سَوْفَ أَكُونُ مُخْتَفِيًا تَمَامًا، وَلَنْ يَرَانِى أَحَدٌ.. فَقَطْ: ذَيْلِى يَرْتَفِعُ وَيَنْخَفِضُ، وَيَتَحَرَّكُ يَمِينًا وَشِمَالا، وَيُهَفْهِفُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْ جَلالَتِكِ حَرَارَةَ الجَوِّ.. كَمْ سَيَكُونُ هَذَا المَنْظَرُ بَدِيعًا وَأَخَّاذًا وَجَذَّابًا..

تَصَوَّرَتِ المَلِكَةُ هَذَا المَشْهَدَ، وَرَأَتْ أَنَّهُ فِعلا مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ بَدِيعًا، وَرَائِعًا، فَقَالَتْ لِلطَّاوُوسِ الأَبْيَضِ:

- إِنَّهَا فِكْرَةٌ لا بَأْسَ بِهَا، وَلَكِنَّهَا تَحْتَاجُ مِنْكَ إِلَى تَدْرِيبٍ طَوِيلٍ، خَاصَّةً أَنَّكَ إِذَا لَفَتَّ إِلَيْكَ الأَنْظَارَ فَلَنْ يَطِيرَ مِنْكَ ذَيْلُكَ فَقَطْ.

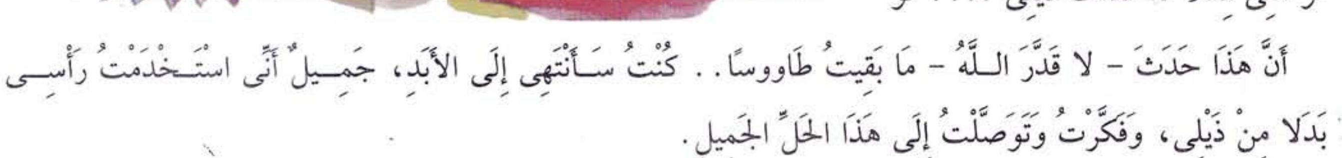
ضَحِكَ الطَّاووسُ الأَبْيَضُ لِيُخَفِّفَ مِنْ تَوَتُّرِ المَوْقِفِ، وَقَالَ:

- أَعْرِفُ أَنَّ رَأْسِى أَيْضًا سَيَطِيرُ.

ابْتَسَمَتِ المَلِكَةُ وَقَالَتْ: إِذَا كُنْتَ قَدْ أَدْرَكْتَ هَذَا، فَاذْهَبْ وَحَاوِلْ أَنْ تُتْقِنَ مُهِمَّتَكَ.

غَادَرَ الطَّاووسُ الأَبْيَضُ المكَانَ، وَهُوَ يَشْعُرُ بِارْتِياحٍ عَميقٍ.. وَلَمْ يَنَمْ طيلَةَ لَيْلَتِهِ؛ إِذْ رَاحَ يَتَدَرَّبُ عَلَى تَحْريكِ ذَيْلِهِ، كَمِروَحَةٍ حيَّةٍ، تُهَفْهِفُ وَتُرَفْرِفُ مِنْ حَوْلِ المَلِكَةِ، دُونَ أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ أَوْ تَقَعَ عَلَيْهِ عُيُونُ الضُّيُوفِ.. وَكَانَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ فِي أَثْنَاءِ التَّمْرينِ وَالتَّدْريبِ وَأَيْضًا خِلالَ مُمَارَسَتِهِ لِمُهِمَّتِهِ هَذِهِ فِي اليَوْمِ التَّالِي خِلالَ الحَفْلِ الكَبيرِ :

– لاشَكَّ أَنَّ دُنْيَانَا مَليئَةٌ بِالطَّواويسِ الجَميلَةِ.. وَلَسْتُ أَظُنُّنِي الطَّاووسَ الأَبْيَضَ الوَحيدَ فِي هَذَا العَالَمِ، فَإِنَّ الذي خَلَقَنِي قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلِي بِالعَشَرَاتِ، وَرُبَّمَا بِالمِئَاتِ، بَلْ وَالأُلُوفِ، بَيْنَمَا كُنْتُ أَنَا وَحْدِي الذي ضَاقَ بِهِ الجَميعُ بِسَبَبِ غُرُورِهِ.. مَاذَا لَوْ أَنَّنِي فِعْلاً قَدْ فَقَدْتُ ذَيْلِي ؟!.. لَوْ أَنَّ هَذَا حَدَثَ – لا قَدَّرَ اللَّهُ – مَا بَقيتُ طَاووسًا.. كُنْتُ سَأَنْتَهِي إِلَى الأَبَدِ، جَميلٌ أَنِّي اسْتَخْدَمْتُ رَأْسِي بَدَلاً مِنْ ذَيْلِي، وَفَكَّرْتُ وَتَوَصَّلْتُ إِلَى هَذَا الحَلِّ الجَميلِ.



كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الأَفْكَارَ التي خَطَرَتْ عَلَى بَالِ الطَّاووسِ وَهُوَ يُرَوِّحُ عَنْ جَلالَةِ المَلِكَةِ فِي أَثْنَاءِ جُلُوسِهَا عَلَى عَرْشِهَا فِي الحَفْلِ، وَقَدِ احْتَفَى بِهَا الكُبَرَاءُ وَالعُظَمَاءُ، وَتَطَلَّعُوا بِدَهْشَةٍ إِلَى هَذِهِ المُهِمَّةِ الجَليلَةِ التي يَنْهَضُ بِهَا الطَّاووسُ الأَبْيَضُ، وَأُعْجِبُوا بِهَا أَكْثَرَ مِنْ إِعْجَابِهِمْ بِهِ.. أَخيرًا أَصْبَحَ لَهُ عَمَلٌ يُؤَدِّيهِ.. بَدَلاً مِنْ هَذَا الغُرُورِ وَالتَّعَالِي.

وَشَعَرَ أَهْلُ لَشْبُونَةَ بِالارْتِيَاحِ؛ لأَنَّ الطَّاووسَ الأَبْيَضَ لَمْ يَفْقِدْ ذَيْلَهُ، بَعْدَ أَنِ اسْتَخْدَمَ رَأْسَهُ.

رِحْلَةٌ قَصِيرَةٌ إلَى إسْبَانْيَا

بِلادٌ جَمِيلَةٌ، شَمْسُهَا مُـشْرِقَةٌ، تَشْتَهِرُ بِمُصَارَعَةِ الثِّيرَانِ.. وكُرَةِ القَـدَمِ وأَيْضًا بِالقِلاعِ وَالقُصُورِ التِى يَزِيدُ عَدَدُهَا عَلَى ١٤٠٠ .

كَانَتْ إسْبَانيا قَدْ دَخَلَهَا أَجَانِبُ كَثِيرُونَ:

* حكَمهَا الفِينِيقيُّونَ - أَهْلُ سَاحِلِ الشَّامِ: لُبْنَان وَسُوريًّا وَالأَردُن - نَحوَ ثَلاثَةِ آلافِ سَنَةٍ.

* اسْتَولَى عَلَيها القَـرطاجنيون الإِفْرِيقيُّونَ، وَعَاشُـوا قُرْبَ مَدِينَةِ تُونسَ الحَالِيةِ، وَأَشْـهَرُ قُوَّادِهم «هانيبال» الذى تَجاوزَ إِسْبَانيا حَتَّى وَصَلَ إِلَى إِيطَالِيَا، وَهَزمَ الرُّومَانَ فِى عُقْرِ دَارِهِم.

* أَصْبَحتْ بَعْدَ فَتْرةٍ جُزْءًا مِنَ الإِمْبرَاطُوريَّةِ الرُّومَانِيَّةِ.





* فَتَحَهَا العَرَبُ والمُسْلِمُونَ، وَصَارَتْ أَعْظَمَ مَوَاقِعِ الحَضَارَةِ الإسْلامِيَّةِ العَرَبِيَّةِ الزَّاهِرَةِ طِيلَةَ (٧٥٠) عَامًا.

* كَانَ العَرَبُ يُسَمُّونَهَا «الأَنْدَلُس»، وَقَدْ سَقَطَتْ بَعْدَ ذَلِكَ سُقُوطًا مُدَوِّيًا بَيْنَ أَيْدِى الأُوربيِّينَ.

* اسْتَطَاعَ «كريستوفر كولمبس» اكْتِشَافَ أمريكا وأَعْلَنَتْ إسْبَانيا امتِلاكَهَا لَهَا، واسْتَعمرتْهَا، وبِذَلكَ اسْتَولَتْ عَلَى كَمٍّ كَبِيرٍ مِنَ الذَّهَبِ جَعَلَهَا وَاحِدَةً مِنْ أَغْنَى بُلْدَانِ العَالَمِ عَامَ (١٥٠٠م).

دَخلتْ إسْبَانيا حُرُوبًا كَثِيرةً خَارجيَّةً وَدَاخِليَّةً أَفْقَدَتْهَا ثَروَتَهَا الكَبِيرَةَ، فَصَارَتْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ أَفْقَرِ بُلْدَانِ أُوربَّا.

شَتَّانَ مَا بَيْنَ مَاضِيهَا القَرِيبِ وَحَاضِرِهَا الذى تَعْتَمِدُ فِيهِ عَلَى السِّيَاحَةِ وبَعْضِ المحَاصِيلِ الزِّرَاعِيَّةِ؛ حَيْثُ يَعْمَلُ نِصفُ السُّكَّانِ فِى الزِّرَاعَةِ.

تَشْتَرِكُ إسْبَانيا والبُرْتغالُ فِى شِبْهِ جَزِيرَةِ أيبريا، وَإنْ كَانَتْ إنْجلترا تَحْتَفِظُ بِمضيقِ جَبَلِ طَارِق، ومَسَاحَتُهَا تَزِيدُ قَليلا عَلَى نِصفِ مَسَاحَةِ مِصْرَ؛ إذْ إنَّهَا تَمتَلكُ أَرَاضِىَ أُخْرَى خَارِجَ حُدُودِهَا تَصِلُ إِلَى ثُلُثِ مِسَاحَتِهَا.

العِيدُ القَومِىُّ لإسْبَانيَا يُوَافِقُ الثَّانِى مِنْ مَايو مِنْ كُلِّ عَامٍ احْتِفَالا بِثَورَتِهَا ضِدَّ «نابليون بونابرت» يَومَ (٢من مَايو سنة ١٨٠٨م).

وَعُمْلَةُ إسْبَانيا اسْمُهَا «بيزيتا».

فهرس

رقم الإيداع ٣٠٥٤ / ٩٨ الترقيم الدولى: ISBN : 977 - 261 - 597 - 5


حكايات الشعوب
تؤلِّف الشعوب حكايتها الجميلة، تنبت لها أجنحةً، ترفرف بها وتطير مهاجرة حُرَّة لا تعرف الحدود أو القيود، تهبط فى هذه السلسلة فوق شجرتنا، تغرد، تغنى، تمتعنا، وتحلق عاليًا، تزيد من معرفتنا للإنسان فى كل زمان ومكان، تخاطب فينا وجداننا وعقولنا، وتثير فينا حُبا للشعوب والناس والحياة على كوكبنا، هى حكايات ملونة، عذبة، جذابة، شيقة، رشيقة.
عناوين السلسلة
* توكيتارو. وحكايات أخرى من اليابان.
* هونشى وحكايات أخرى من اليابان.
* بيت العنكبوت وحكايات أخرى من إفريقيا.
* الفراشة الصفراء وحكايات أخرى من إفريقيا.
* دون دمينينو وحكايات أخرى من إسبانيا.
* الطاووس الأبيض وحكايات أخرى من إسبانيا.
* حضرة العمدة وحكايات أخرى من السُّلاف.
* من يفوز وحكايات أخرى من السُّلاف.
* إن شاء الله وحكايات أخرى من إندونيسيا.
* تل النمل وحكايات أخرى من إندونيسيا.
* قوس قزح وحكايات أخرى عن الهنود الحمر.
* آكل السحب وحكايات أخرى عن الهنود الحمر
6 222002 115825
سفير ٥ ش جزيرة العرب - المهندسين - القاهرة - ص. ب: ٤٢٥ الدقى ت: ٣٣٧٩٧٥٢ - ٣٣٥٣٧١١ - ٣٣٥٣٧١٢ - ٣٤٩٤١٣٩ فاكس: ٣٤٨٠٢٩٩